عبداً رقيقاً قبيح الوجه ضعيف العقل سيء الخلق مشوّه السحنة والتركيب ذليلا مهاناً مطروداً يأكل بعضه بعضا وقد احتقره ابن البرد فهو لا يؤاكله ولا يصاهره ولا يسمح له بحق من حقوقه بل يعتبره بعيداً عن الانسانية قريباً من الهمجية وكل هذا انما جاء من تأثير البرد المفرط الذي احدث القوة والنشاط والذكاء ومن تأثير الحر المفرط الذي احدث الخور والجبن وضعف الصحة والبلادة والبله والفدامة والعي والحصر مما اوجب كله الذل والاستكانة والرضى بالحياة على اية حالة تتفق

فاذا كان الانسان كافراً لانه لا يرضى بحالة فذلك كفر موقت صادر عن غير روية ولا تبصر ولكن الانسان العاقل حين يتبصر في كل شؤون حياته وعواقب الحر والبرد عليه فانه يختار البرد مهما افرط على الحر ولو قل افراطه وكفى بما تقدم من صحة العقل والجسم دليلا على صحة ما نقول

﴿ بيان حقيقة ﴾

عربنا في الجزء الماضي ما اتسع له المقام من تاريخ البرنس فيزنيوسكي والان نتم تعريب تاريخه كله باختصار زيادة في البيان

فمما يذكر من حسن مساعيه انه لما نكبت فرنسا في حربها مع المانيا سنة ١٨٧٠ اصاب الفلاحين الفرنسويين ضيق شديد فما كان من هذا الامير الا انه ارسل كتاباً الى صديقه الملك اوسكار يطلب منه شيئاً من الاعانة لهم فورد منه مبلغ مئتي الف فرنك وزعت عليهم مع الذي وزع في ذاك العهد

ثم انه لم يكتف بهذه المساعدة التي قدمها للمزارعين بل انه ساعد بنك فرنسا بارائه لكي يستطيع مساعدتهم بامتيازات خصوصية وكان ذلك عن يد والد المرحوم المسيو كرنو رئيس الجمهورية الفرنسوية فان البرنس اشار عليه اشارات جمة ليجري بموجبها في مساعدة الفلاحين فعمل بها ولم يكن يدري بها من قبل وبهذه الواسطة امكن بمساعي البرنس اقراض الفلاحين ثلاثين مليون فرنك

ثم انه مما يدل على شدة محبته للسلم مع المرحومة قرينته ان المرحوم الفرد نوبل مستنبط الديناميت الشهير وصاحب جوائز السلام المشهورة كان كثير التردد على البرنس في باريز لمشاركته في مساعيه وقد كانت صداقته معه هي السبب لوضعه جوائز السلم المشهورة التي لا تزال للان توزع على كل من يسعى للسلم سعيه

ولقد قلنا ان صداقته للاسرة المالكة في اسوج قديمة مؤكدة ولكن مما يزيد في تأكيدها ان ملكة اسوج لما سافرت الى اسبانيا عام ١٨٨٠ لزواج ابنها الامير اوسكار (الملك الحالي) دعت الامير فيزنيوسكي ليكون معها في اسبانيا ومع ابنها الملك فذهب وصحب الملك في كل رحلاته باسبانيا ثم ذهب الى البورتغال فتقابل مع ملكها الدون لويس فاحتفى به كثيراً

ولقد كان له في ايطاليا اصدقاء عديدون من اكابر اولي الحكم والعلم والتدبير مثل كاريلدي وكاتانيو والجنرال كيالديني وسواهم كما انه اقام عشر سنوات هناك وهو رئيس مجلس ادارة المجلة الشهيرة المعروفة بالمجلة السياسية وقد كانت فصوله فيها من جملة العوامل على توثيق المودة بين ايطاليا وفرنسا فانتفعت ايطاليا بذلك نفعاً كبيراً وسر لها الملك عمانوئيل سروراً كبيراً ثم

لم يكتف بذلك بل تدخل حين جلوس جلالة الملك الحالي بشؤون ايطاليا وسياسة استعمارها فنالت سياسته استحساناً كبيراً من جلالة الملك وارسل يشكره كثيراً بكتاب تاريخه ٣ يناير من سنة ١٩٠٦

ثم انه لم يكن مكتفياً بهذا وحده بل ان مصائب فرنسا عام ١٨٧٠ كانت دائما تذكره وتذكر المرحومة قرينته بامر السلام ولذلك بلغا من الشهرة فيه مبلغاً عظيما حتى التف حولهما خمسة ملايين نفس في جميع اطراف الارض وبينهم عدد عظيم من اكابر الحكام والامراء والاميرات العظام. الا ان فقد قرينته كان ضربة شديدة عليه وعلى كل عارف فضلها ولذلك وردته تعزيات جمة من عدة ملوك (وهي مما يضيق المقام عن نقلها الان) ولكننا ننقل منها تعزية جلالة الملك اوسكار الثاني الحالي فانه بعث اليه بكتاب هذه نسخته

« لقد علمت باسف شديد خبر فقدكم لقرينتكم الكريمة ذات الفضيلة التامة والكمال ولقد حزنت على وفاتها وادركت مقدار حزنكم عليها ولكن لا تنس ان الحياة على هذه الارض هي تجربة وتنبيه وان الحياة الحقيقية انما هي بعد الموت ولكن صديقكم هذا القديم يطلب من الله ان يتفضل بتعزيتكم ويقوي قلبكم مسافة ايامكم الباقية لمكافحة هذه الدنيا الفانية »

اوسكار الثاني

الا ان فقد قرينته كأنه قد زاد في تبعة السلم عليه ولذلك فهو الان يدرس مشروعاً جديداً يؤسس به جمعية جديدة يمكن بها اتفاق الامم ومصالحة الشعوب ولهذا نال شهرة فائقة في كل مكان كما انه عضو في عدة جمعيات منها جمعية الصنائع والفنون في لندن والجمعية الجغرافية في ليسبون

ورئيس شرف لجمعية اتحاد النساء العمومي وتهذيب باريز ومحامي جمعية التمدن والسلام في رومة وغير ذلك جمعيات لا سبيل لذكرها كلها

اما والده البرنس ميشيل فيزنيوسكي فقد توفي في نيس سنة ١٨٦٥ في ٢٤ دسمبر وامه البرنسس اليزابيت دي موتيتا لسيسكال فقد ماتت في نيس ايضاً بتاريخ ٢٧ مارس سنة ١٨٧٦ وشقيقته ميشلين قد توفيت في كراكوفي سنة ١٨٣٦ وماري في نيس سنة ١٨٩٨ ولويزا توفيت في نيس ايضاً سنة ١٩٠٠ وعلى هذا يكون البرنس ادمو فيزنيوسكي هو الامير الوحيد الباقي من اسرة بروس البولونية الملوكية وليس له وريث قط لانه لم يرزق بمولود من قرينته الاولى التي توفيت في ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٨٦ ولا من قرينته الثانية التي توفيت سنة ١٩٠٣ وعلى هذا تكون صاحبة هذه المجلة وقرينها واولادهما ورثاء لقب هذا الامير الجليل مد الله في حياته ومتعه بالبقاء الطويل

ولا بأس هنا ان نضيف الى مختصر تاريخ هذا الامير مختصراً آخر من تاريخ والده زيادة في الدلالة والبيان

ولد البرنس ميشيل فيزنيوسكي والد الامير السابق في سنة ١٧٩٦ وتوفي في مدينة نيس سنة ١٨٦٥ على اثر مرض قلب مزمن تحمله بصبر عجيب يرد سببه الى اصله البولوني المشهور بالاحتمال الشديد

وكانت اسرة فيزنيوسكي على غنى دائم وكانت تملك ارضاً واسعة في جبال كريات ولكن معظم غناها كان من السيف والقلم اللذين انتصرت بهما واثرت وكان جد البرنس ميشيل وهو البرنس انطون رئيساً شهيراً للحزب الحر في بولونيا بالقرن الماضي وله عدة تآليف تاريخية كما ان اجداده جميعهم كانوا كلهم من رجال البأس والحرب . وقد اقترن جده بابنة اخت الوزير

الاعظم الكونت دي بروهل قائد حراس امير سكسونيا وملك بولونيا

وقد تلقى البرنس ميشيل المشار اليه دروسه الابتدائية في ليوبوليس وبعدها في كلية كريمانس وصار هناك صديقاً لكاديوس كزاركي ثم استمر في باريز منكباً على الدرس على مشاهير من الاساتذة مثل جيزوت وكوزان واتم علومه في كلية ادنبرغ الكبرى وكانت له صداقة وعلاقات مع والتر سكوت وولسن وهاملتون وسواهم من مشاهير المؤلفين في ذاك العصر

وكان حين حدثت ثورة بولونيا سنة ١٨٣١ في قصره بفوليني فهب اليها في الحال واجتاز حدود بولونيا تحت نيران الروسيين لكي يحارب اعداء وطنه وكان مهماً في ذاك الوقت باثارة اهالي فوليني واهالي ليتماني ولكن الحكومة الملكية في ذاك العهد لم تدرك حقيقة الامر حتى كانت سنة ١٨٦٢ ولكن الحالة ايضاً لم تكن موافقة ولم تكن الظروف فيها كظروف سنة ١٨٣١ التي لما انطفأت ثورتها التجأ الى جمهورية كراكوفي فعينته ناظراً لكلية باجل

وقد كان الشعب محباً له متباهياً به ولذلك انتخبه رئيساً للحكومة الاهلية وكان هو نفسه الذي انقذ كراكوفي من مذابح غاليسيا رغماً عن قصر المدة التي قضاها في الرئاسة

ولقد اشتبهت فيه حكومة روسيا فالقت القبض عليه وضبطت امواله وسجن في النمسا بدون دعوى لحد سنة ١٨٤٨ اي لحين نشوب الثورة في فينا حيث فتحت ابواب السجون للمسجونين السياسيين وبعد ذلك هاجر الى ايطاليا حيث لقي من حسن الضيافة والاكرام ما كان يستحق

وقد نشر في سنة ١٨٣٤ باللغة البولونية تأليفاً شرح فيه فلسفة باكون ونشر في سنة ١٨٣٨ مؤلفاً آخر في السلوك الانساني فترجم الى اللغة الانكليزية سنة ١٨٥٣ . والف فيما بين سنة ٤٠ و٤٨ اربعة اجزاء من تاريخ بولونيا عدا تأليفه لتاريخ آخر عن ادباء بولونيا يقع في عشرة اجزاء وهو من اعظم التآليف الفلسفية في اللغة الشمالية . وقد تخرج عليه في مدرسته نخبة من الشبان اججوا بكتاباتهم نار الثورة العظيمة التي قام بها الشعب البولوني سنة ٦٣ ولم تتمكن الحكومة الروسية من اطفائها الا بعد جهد عظيم حتى داهمته المنون وهو يشتغل بوضع تاريخ لنابوليون الاول فيما يتعلق خصوصاً ببراعته في فنون الحرب

وقد كان هذا الامير محباً للحرية مريداً خير الشعب والرجوع به الى تقرب الملك من الفلاح كي لا يكون كبر وانفصال بين الفريقين بدعوى الشرف الذي كان يريد ان يفهمهم اياه بحقيقة معناه حتى لا يكون حاجزاً بين شعب واحد في بلاد واحدة . اما الدسائس والوشايات وكل المساعي العقيمة فكان يبتعد عنها بعداً كبيراً ولا يحوم الاحول الصواب والشيء المستطاع ولذلك كان محبوباً من الجميع ومحسناً الى الجميع كما انه كان عالماً حاذقاً ومؤرخاً شهيراً نال باعماله الجليلة ابعد صيت واجمل ذكر فوق ما ناله بكونه والد الامير ادمو فيزينوسكي صاحب الترجمة السابق الذي جاء مكملاً لاعماله ومحامياً لشؤون الاداب والسلم

هذا مختصر ما يذكر من تاريخ هذا الامير ووالده واما تاريخ اسرة افيرينوه التي تبناها البرنس ادمو المشار اليه فقد كان في النية وضع شيء منه ايضاً لولا ضيق المقام ولكن جملة حالها انها من الاسر العريقة في النسب

وهي ذات فضل شائع ورجال كملة يدل على ذلك اختيار البرنس لها ووقوع انتخابه عليها ورضى جلالة ملك ايطاليا عنها لان امراً خطيراً كهذا لا يتم بسهولة بل هو قد اقتضى اجراءات عديدة ورسوم جمة واستصدار اوامر ومراجعة تقارير وطول اقامة في رومة حتى اذا انتهى كل ذلك اصدر جلالة ملك ايطاليا عمانوئيل امره العالي باعتماد هذا التبني والاعتراف بصحة النسب بتاريخ اول ستمبر من سنة ١٩٠٦

اما النشرة التي اختصرنا منها نقل الترجمة الآنفة فتدعى

I Nostri Contimporanci

اي معاصرونا وقد بقي في التاريخ امور اخرى اضطرنا ضيق المقام الى تركها مكتفين بالاشارة اليها . فمن شاء معرفة كل ما قيل بحرفه فعليه مراجعة النشرة المشار اليها

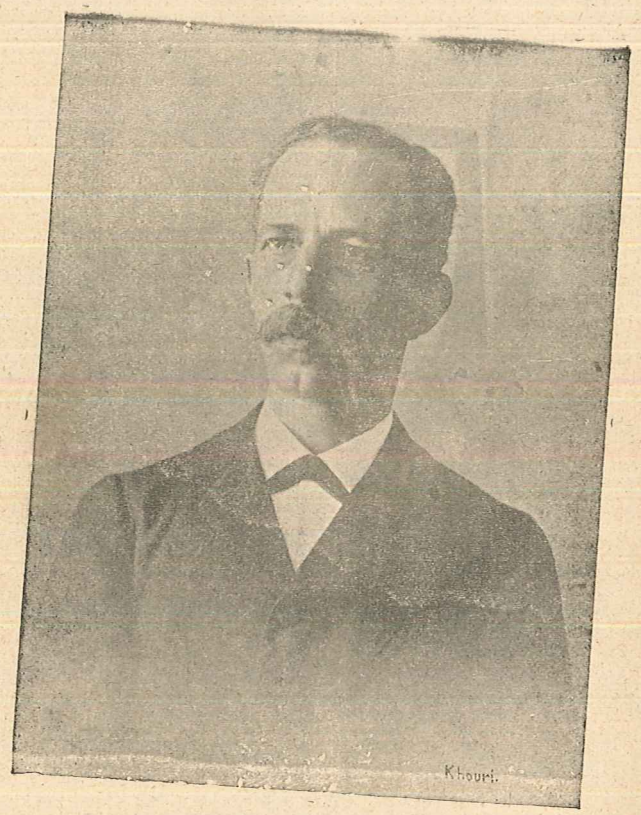

مأخوذة من جريدة المصور

الشيخ ابراهيم اليازجي

غاض القريض واذوت نضرة الادبِ
وصوّحت بعدُ ريّاً دوحة الكتبِ
اجل فلقد فجع العرب في الثامن والعشرين من هذا الشهر بنبع

القوافي ومعين القريض الصافي اذ مات فيه علامتهم العظيم الشيخ ابراهيم اليازجي بل علامتهم الاوحد الذي ضرب بمعجزات بيانه على ذكرى البديع واحمد والذي كان يكتب فيخلب الالباب بجمال كلامه . وينظم فتود النحور لو تتحلى بدرر نظامه ويجيل قلمه على الطرس فترى الفصاحة ماشية من ورائه وامامه وصحة القول سابقة من قدّامه ولقد مضى على العرب قرون طوال انتسق فيها بلغاؤهم انتساق الكعوب . وتوالى كتابهم فيها كالرمح انبوباً على انبوب ولكنه كان في الحقيقة لهذمهم المخذم وكان وهو على انه آخرهم السنان المقدّم

اجل لقد مات امام اللغة العربية بعد ان افنى في خدمتها نحو الستين سنة افنته جهداً ونهكته نقداً واتعبته جداً ولم يجد منها بداً اذ لم تجد منه بداً بل هو قد لزمها فما انفك عنها حتى ملأها بحثاً وتحقيقا وتملاّها كشفاً وتدقيقا واملاها درساً وتعليقا حتى لم تبلعه ريقا فالآن يغيض ذلك المنهل الفرات وتتعطل القوافي والابيات ويصوّح ذلك الروض الذي طالما اسمع بلبله من الاغاريد ما لا تسمعهُ البلابل وتدبجت جوانبه من صنعته بما لا تدبجه انداء الاسحار والآصائل والان يتلجلج لسان القائل . ويظن نفسه عالماً كل جاهل بل الان يتحير الصواب ويمتنع فصل الخطاب ويضلّ اولو الالباب ويتضايق الكتاب بل الان يعي البيان ويعجز اللسان ويضعف البرهان ويظهر في الشرق تقصير الانسان فمن لنا بعد اليازجي ابراهيم بمن ينتزع منه من يجيد تأبينه كما كان يؤبن كل مجيد ومن لنا بمن يستطيع تقليد طريقته وقد عز على المقلد التقليد بل من لنا بمن يقرن الاجادة بالصواب والتسديد ويطلق الحكمة العريضة

في عرض كلام كالدر النضيد هيهات قد علقت كل هذا اشراك الردى وحال دونه المدى فهو لا يرى مثله غداً وقد لا يرجع نظيره ابداً .

واننا الان في مقام التأبين ولكن لقد عز القول بعده على القائل وبعدت الثريا عن يد المتناول ولذلك نكل تأبينه الى المدامع تنهل عليه بدل المداد وتقوم حمرتها عليه مقام سواد الحداد وتغني في تأبينه عن التعديد بالتعداد

ولقد كان في النية ذكر مطول من حيثيته واعماله واخلاقه فرأينا في جريدة البصير الغراء ما يقوم بعض المقام بما نريد فاخترنا اثباته مع التصرف فيه واعدين فيما بعد بالمزيد وهو كله بقلم ابن اخته امين الحداد

قالت بعد تأبينه ورثائه

كان اليازجي ابراهيم غريباً جداً في صفاته . حتى كأنه عالم قائم بذاته . وكانت نفسه على غير المألوف من كل نفس . فكأنه وحده جنس . اوهو كما قال والده عن نفسه

انا منهم جسما لاني بعضهم ولكن نفسي قط لم تك منهم

ثم نحن لا ندخل الان في مبالغات التأبين وذكر شتى النعوت والاوصاف مما تألفه الجرائد في مثل هذه الاحوال بل نذكر ما تنبه اليه الذهن من خلقه الغريب لان ما عدا هذا من شائع الاخلاق ستذكره الصحائف والمجلات من باب التاريخ ولعلها تنقل ما نذكره نحن ليكون كتتمة لتاريخها وعوناً لها على ما تقول

فمن اخلاقه التي ذكرتها عنه اكثر جرائدنا في هذين اليومين شدة اباءه وفرط قناعته حتى كأنه القائل لهذين البيتين

امطري لؤلؤاً جبال سرنديب وسحي سماء تكرور تبرا
انا ان عشت لست اعدم قوتاً واذا متّ لست اعدم قبرا

وهذا الخلق ليس بالغريب بل هو على شيوع بين جمهور اولي الفضل ولكن الغريب في اليازجي من جهة القناعة والاباء انه ما شوهد قط متمنياً ولا رآه احد متحسراً ولا قال لشيء ليت ذلك لي حتى كأن الاماني كانت صرعى لديه كما قال المتنبي في سيف الدولة ولا نذكر اننا سمعناه او سمعه احد يقول حبذا ولعل او لو وليت . وانه من المحال وجود انسان لا يتمنى شيئاً في نفسه ولكن اليازجي كان يرى اظهار التمني منقصة ويعتد ذلك من اللغو حتى كأنه يتبع حكمة العامة في قولها الشكوى لغير الله ذل

ومما نتذكر من اخلاقه انه ما حلف قط ولا اقسم بشيء ارادة الاقناع والتأكيد كما انه ما استحلفه احد قط في حياته وذلك لفرط تأكد محدثه من صدقه . ثم انه ما استرهن ولا رهن ولا قامر ولا رابى ولا دخل في اي شيء من شؤون التجارة بمعناها الحاضر المعروف ولا قتل وقته فيما لا يفيد ولا تحدث بالسياسة الا اضطراراً ومجاملة للمتحدثين ولا رآه احد يندم على شيء مع ان الندامة توبة يصلى لها ويصام كما يقول البحتري ولا شوهد متلفتاً للماضي او متحسراً على ما فات بل كان يقول ان التحدث في الخسارة خسارة اخرى من الوقت ولا كان يغتاب احداً قصد التشفي بل قصد اظهار النقص لاجتنابه وهذا كله يدخل في حدود النقد . وكان بادي العفاف ممتازاً به حتى كأنه المتنبي في قوله

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب

او كانه جرير حين قال « ارجعي بسلام »

وكان يعجبه من دريد بن الصمة قوله

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعدِ

وكان على اخلاق ليست كالاخلاق لا نضبطها كلها الان وقد يتنبه اليها المؤرخون والمعاصرون فيذكرونها

اما صفاته الشخصية فقد كان ربعة معتدل الجسم منتصب القامة ابيض الوجه ولوجهه اشراق وحسن وكان كثير التأني في اعماله حتى في مشيته فلا يتولاه ذعر يسرع به ولا ذهول يبطئه حتى كانه المعني بقول الوليد

فتى لم يضيع وجه حزم ولم يبت يلاحظ اعجاز الامور تعقبا

اذا كفّ لم يقعد به العجز مقعداً وان همّ لم يذهب به الخرق مذهبا

بل هو من حيث فرط تأنيه جدير ان يقال فيه بعد موته ما قاله ابو العلاء المعري في رثاء والده عبدالله

فياليت شعري هل يخف وقاره متى صار أحد في القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الرويَّ مبادراً مع الناس ام يابى الزحام فيستأني

حجى زاده من جرأةٍ وسماحةٍ وبعض الحجى داع الى البخل والجبن

وكان شديد الحفظ يعي شيئاً كثيراً من المنثور والمنظوم بين قصائد برمتها ومقطعات وخطب وشذور وحكم وامثال وهو ما يبدو من مطالعة فصوله في الضياء وسواه فان الذي يتنبه اليها حين قراءتها ويرى استشهاده بقول سواه او بشيء من القصص والروايات يجد انه كان على حفظ شديد واذا اتفق وخانته الذاكرة فما استطاع ان يستملي ذهنه عرف بالمكان الذي فيه ما يريد فجاء به سريعاً ولكن هذا كان حين ارادة الاتيان بالحرف والنقل بالنص مراعاة للامانة واما من حيث الاستفادة فما كان كذلك لانه نذر

جداً ان نسي شيئاً استفادهُ بمعناه ولذلك لم يكن كثير التعويل على الكتب حتى كانه المقصود بما قيل

لا بالمضيع الناسي ولا الوكل المحيل في علمه على كتبهْ
احاطة بالصواب تؤمن من لجاجه في المحال او صخبهْ

وكان صناع اليدين حاذقا جداً في كل امر يتولاه فاذا كانت له في الامر مشاركة استعان على اتمامه بحاذق يستطيع ان يتممه والا تركه جملة لانه كان شديد الحرص على الكمال ولم يكن يأنف من سؤال احد فيما لا يدريه وما قال قط ادري في حيث لم يكن يدري وهو خلق اشار به على تلاميذه في احدى خطبه لانه كان يعتده من اجود الاخلاق وكان وقوراً رزيناً يغلب جده على مزاحه وكان في كليهما مستحسن الحالة كأنه المقصود بهذا البيت

لا يكفهر اذا انحاز الوقار به ولا تطيش نواحيه اذا مزحا

وكان من جهة اخرى كما قيل في الفتح بن خاقان

له الاثر المحمود في كل موقف وفصل الخطاب الثبت في كل مجمع
اذا بدرت منه العزيمة لم يقف وان جاز عنه الامر لم يتتبع
طلوبٌ لاقصى الشيء حتى يناله ومغرى بغايات الحقائق مولع

اما ما كان يمتاز به من جهة الشؤون العقلية فشدة الانصاف ولذلك ما نقل قط عن عالم كلاماً وادعاه له او حرفه ليخفي صورته الاصلية بل كان يرد كل شيء الى اصله وينقل الكلام بالامانة وكان يقول اذا كان في قول القائل خطأ فالتبعة عليه واذا كان فيه صواب فاية شريعة تجيز سرقة الصواب من صاحبه وقد بالغ في هذا كثيراً حين ذكره اغلاط المولدين في مجلته

الضياء حتى قال له مرة ابن اخته امين الحداد ان لا كثر المولدين شيئاً يذكر من الخطاء فلماذا لم تتعمد الا الشعر وحده فقال اخاف ان اكون قد ظلمتهم لانه قد يكون الخطأ من تحريف الناسخين وليس منهم او يكون قد دس في كلامهم دساً لغرض واما الشعر فوزنه وقافيته يمان عليه حتى يتعذر العبث بصورته الاصلية كما يعرف ذلك اهل هذه الصنعة

ولقد كان شديد وقع النقد حتى كان في نقده كانه يفت الخردل ويحط الجندل وما كان يرعى في ذلك عهداً ولا صداقة الا من حيث لين الكلام وخشونته واما من حيث جوهر النقد فلا . ولقد كان ممتازاً بمحبة المتنبي متعصباً له احياناً ولكنه اوسعه نقداً ثم انصفه كثيراً ودفع عنه في بعض المواضع دفعاً جميلا ولا سيما في قول المتنبي لسيف الدولة

رأيتك في الذين ارى ملوكاً كأنك مستقيم في محال

قالوا ان سيف الدولة او من كان في حضرته قالوا له ان المستقيم لا يناقض المحال وان المتنبي سكت واما اليازجي فدفع كل هذا عن المتنبي واظهر صواب قوله وعجب لمثل المتنبي كيف يسكت في ذاك المجلس

وكانت له في نثره رشاقة وحلاوة وكان في جملة الانشاء نسيج وحده فترى اسجاعه على غير المألوف من السجع وتراه منفرداً في انتخابه للالفاظ واختياره للتراكيب حتى كان كما يقول الافرنج كأن صورته تظهر من بين سطوره وكان يحاول في بعض انشائه ان يخفي نفسه فتنم ديباجته عليه كما ينم النسيم على العطر . وندر ان اجتمع في كلام منشيء ما اجتمع في انشائه من الرونق وصفاء الماء مع امتزاج ذلك بالجزالة والفخامة حتى كان كلامه كانه الدرع التي وصفها ابو العلاء المعري بقوله

مثل وشي الوليد لانت وان كا نت من الصنع مثل وشي حبيب

بل ما احرى انشاءه ان يسمى بسلاسل الذهب كما يسمى شعر البحتري وهو الوليد المذكور في البيت لانه كانت بين الرجلين مشابهة عظيمة من حيث اختراع الالفاظ والتراكيب ومن حيث عدم تقليد احد من السابقين مع ان التقليد ممدوح واتباع الطريقة مما يستحسن حتى ان الثعالبي لما ذكر آل حمدان في اليتيمة كان في جملة ثنائه عليهم قوله انهم مشوا على الطريقة البحترية

اما نظره في المتقدمين فما يحضرنا منه شيء يذكر ولكنه لا شك قد شافه كثيرين من اخوانه العلماء الموجودين الان فلعلهم يثبتونه في تاريخهم اياه لانه ناهيك بشهادته عليهم من شهادة الا انه كان يثني على ابن الفارض ويعجب بذاك الذوق السليم الذي سرد عدة قصائد لا يوجد ارق من ديباجها ولا انعم من وشيها ولا ابعد منها عن الخطأ النحوي واللغوي لانه كان يرى السلامة من الخطأ حسناً مقدماً على كل حسن وانه من اجل هذا بالخصوص كان يعجب بالمتنبي . وكان معجباً ايضاً بكلام الامام علي والحجاج بالخصوص لصحة تركيبه وجماله . وكان يثني على الهمذاني ويقول عنه انه لولا البذاءة في بعض قوله واسفافه الى حد السوقة احياناً لما كان اكتب منه وكان يظن ان ماجرى بينه وبين الخوارزمي من المهاترة كان مصنوعاً او مدخولا عليهما او مزيداً عليه لانه كان يرى في الخوارزمي كاتباً لا يقل عن الهمذاني كما ان الهمذاني يرى نفس ذلك كما يبدو في بعض رسائله التي يذكر بها الخوارزمي . ثم قال انه ما رأى عظيمين قد اختصما لاول مقابلة الا المتنبي والحاتمي والهمذاني والخوارزمي وجان جاك روسو وفولتير ولعله

لا يوجد سواهم اما ابو تمام فلم يكن يعجبه الا في شيء قليل من شعره وكان يعجب من الذين وضعوه في صف المتنبي والوليد وقد كان ابن الرومي كذلك في نظره

اما الادباء المعاصرون فله في حقهم شيء من الشهادة فلقد سئل مرة عن احمد محرم الشاعر فاثنى عليه وذكر صحة جريه في خطة المتقدمين وحسن تقليده واتباعه وعد ذلك من البراعة وسئل عن احمد شوقي فاثنى عليه وذكر امتيازه برشاقة النظم وحلاوته . ورأى مرة قصيدة لحافظ ابراهيم نظمها حين حادثة الشيخ علي يوسف فامتدحه واثنى على ادب نفسه وحسن صنعه وجودة تركيبه . ونظم خليل المطران قصيدته البائية في رثاء نجيب الحداد فقال هذا هو شعر خليل الحقيقي ولو كان كل شعره على هذه الصور والمعاني وحسن الصنعة في اظهار العواطف لما مشى معه احد من المعاصرين . وقد قال مثل هذا القول عن قصيدة الشريف الرضي في ابي اسحق الصابي فان اخاه خليلا قال له مرة انها حسنة جداً فقال ليس كلها ولكن لو كان كل جيد الشريف كجيدها لكان كالمتنبي . واثنى مرة على مصطفى صادق الرافعي وقال انه على كونه صغير السن يعد شيئاً مذكوراً وذكر مثل هذا عنه في الضياء . وسئل عن السيد البكري فقال انهم حين حكموه مرة ليرى اي القصائد اجود في مديح الخديوي رأى له قصيدة في غاية الحسن وامتدح متانة قوافيها بالخصوص وسئل عن صديقه الوفي قسطاكي بك الحمصي فقال انه يشتغل الان بتصنيف كتاب في علم الانتقاد سيكون سبباً لتخليده لانه ما كتب للان على طريقته . وسأله اديب مرة عن اشعر الشعراء الان في مصر فقال اذا كان الشعراء اختصاصيين فامين الحداد اشعرهم اذا شرب ثم

ضحك لان اميناً ابن اخته . وكان يثني على اسكندر شاهين المحرر الان في جريدة الوطن ويقول عنه انه يورد عن عقل ويصدر عن تمييز وانه لو كان انشاؤه من رتبة معانيه ومقاصده لكان افضل كاتب . وسئل عن الشيخ محمد عبده فقال انه ما تعرض قط لبحث ديني مع انسان ولكن اتفق من دهر طويل ان جرى بينه وبين الشيخ محمد شيء من هذا فرأى منه انه اعقل مما كان يظن ولذلك لامه مرة في الضياء لانه اوشك ان يخلف الظن الاول

وسئل عن علماء النحو المتقدمين فقال انهم كتبوا كثيراً وافهموا قليلا وسئل عن الالياذه لصاحبها سليمان البستاني فقال ان مقدمتها خير منها بكثير ولكن جملتها وما اقتضته من صحة النظر تدل على ان الرجل عظيم وقد ذكر شيئاً من هذا في الضياء . وسئل عن شعر ابي العلاء المعرى فقال انه في لزومياته اشعر منه في سواها حكمة وصنعة وكان يرى ان بعض رسائله المطبوعة من عهد قريب منسوبة اليه لان فيها ما لا ينطبق على مقدار ذوقه وعقله

هذا طرف يسير من حيثية اليازجي يمليه عفو الذاكرة والبديهة ولكن اخوانه الادباء الذين لزموه كثيراً يحفظون له اقوالا شتى وحكماً مأثورة وشذرات كثيرة ولا سيما ساعات مزاحه فانه يذكر اثناءها نكتاً تكتب وكان مزاحه في غاية الحلاوة حتى ان عبده الحمولي كان يغريه باللهو اغراء فيغني له ليسمع حديثه

وجملة القول ان ابراهيم اليازجي كان انساناً عظيما كاملا من اكثر الجوانب ولو فسح الله في اجله خمس سنين فقط لكانت على قلتها تعدل

كل عمره لان ما تركه من المصنفات غير كامل وهيهات من يستطيع اكماله الان على وفق النسق الاول لان الذين نعرفهم من اولي هذه الصنعة لا يزالون اقل من هذه الدرجة على ما نظن . ولقد ترك اليازجي فراغاً كبيراً كما يقول الافرنج وربما يكون طويل المدة لانه اذا ملىء جزء بقيت اجزاء اذ انه كان على حد ما قال اخوه خليل

الرجل الذي يكون للرجال مثلا
من كيفما قلبته اراك منه رجلا

رحم الله تلك الروح الطاهرة

ولقد هال مصرعه جميع الادباء ورنت اسلاك البرق تنعاه الى كل الارجاء وكان اشد من تأثر لمنعاه واسبق لرثائه الشعراء فسبق جميعهم الشاعر المجيد محمد افندي امام العبد فرثاه بخير القول واجوده وتبعه مصطفى الرافعي وخليل المطران واحمد محرم وعدد كبير اجاد اكثرهم اجادة تندر منهم كانما كان يسقط عليهم ابداعه وحياً او كأن نظمهم كبر بمقدار ما كبرت المصيبة فيه فجاءت اقوال بعضهم في غاية الحسن والجودة حتى انه لو رآها مرثياً بها غيره لمات قرير العين بحالة الشعراء ومبلغ النهضة الفجائية التي نهضوها . على ان تلك القصائد الغراء ستنشر كلها في كتاب خاص فلا حاجة الى الاشارة اليها جميعها كما انه لا سبيل الى ذلك لتفرقها وعدم امكان الظفر بها ولكننا ظفرنا بقصيدتين نظمهما حضرة الشاعرين جبران افندي نحاس وامين افندي الحداد فرأينا اثباتهما لكي لا تخلو المجلة من بعض الشيء الذي قيل فيه ولولا ضيق المقام لاتينا من ذلك بالشيء الكثير ليس من قبيل المشاركة في التفجع على هذا الراحل العزيز فقط بل من قبيل تزيين المجلة

بذاك الشعر النفيس اما قصيدة جبران افندي النحاس فهي منقولة عن جريدة المصور الغراء مع القصيدة التي تليها

مولاي ابكيت المحب الذاكرا ... وقضيت في المهجات حكماً جائرا
ولتلك يا مولاي اول مرةٍ ... لم ترعَ فيها للمحب اواصرا
اعرضت عنا جانباً وسدلت من ... نسج القنوط على اللقاء ستائرا
فنسخت ظلاً للامالي وارفاً ... صرداً واذويت البقيع الناضرا
لو كنت ترعي القلب سمعك بعدها ... لوعيت منه اذن وجيباً جاهرا
مولاي قد يبس الثرى ما بيننا ... ونجيع هذا الجفن يسفح هامرا
امسكت عنا غير ما حبّرته ... وهجرتنا الاّ خيالاً زائرا
ويحي لدن عزّيتُ آلك صابراً ... متجلداً وكذبت لم اكُ صابرا
لك في فؤادي لوعة لا تنقضي ... وهوًى تملك مهجتي والخاطرا
لولا سوى الاكفان دونك حائل ... لشققت استار المنون مبادرا
ولو انَّ خلف القبر سرًّا مضمرا ... لجلوته وطلعت نجماً زاهرا
أنّى صرفتُ الفكر واجه ذكركم ... قلبي كما لفح الهجير مسافرا
فذكرت للاستاذ علماً باهراً ... إن سامرت عيني الرقيع الدائرا
وذكرت انفاساً له عطرية ... ان انبتت ايدي الربيع ازاهرا
ولأذكرنَّ ضياء شمسك ماجلت ... شمس الضيا وجه الصباح السافرا
ملأت معانيك الوجود كأنها ... كانت لحسن الكائنات عناصرا
أسمعت للكتاب صيحة باخلٍ ... صلد الصفا سلبوه كنزاً زاخرا
انشأت فيهم صبوةً قد جددت ... للنثر مغنىً كان قبلك داثرا
لن تحمل الاقلام ايديها ولا ... اجرت على صدر الطروس محابرا

لاّ تذكرتِ انتقادك فاتقت ... من عالم الانوار روحك ناظرا
لا يرسل الرحمن مثلك صالحاً ... ليهذّب الكتاب الا نادرا
قد علّم الاسماء قبلك آدماً ... لكن هذا العلم اصبح قاصرا
فأتى بآل اليازجي مستدركاً ... ما فاته ولذاك جئتم آخرا
حركت اوتار القريض فلم تدع ... رناتها من بعد شعرك شاعرا
وسلكت في اهل البلاغة منهجاً ... قد ردّ عهد ابن العميد الغابرا
وقطعت في الابداع شوطاً ينثني ... من دونه نظر المقلد حاسرا
واتيت من آي البيان بمعجزٍ ... لم يبقِ زنديقاً بفضلك كافرا
ثم انصرفت مبدلاً منه اسى ... مستوطناً فينا وصيتاً طائرا

أحييتَ عصرَك تأليفاً وتأديبا ... والآن افنيتَ إجهاداً وتعذيبا
هذا جزاءُ سِنِمّارٍ ولا عجبٌ ... للحادثات يُعاودنَ الأعاجيبا
بل ليس من عجبٍ فيما دهاك فقد ... كان الذكاءُ على الانسان محسوبا
حطّي رحالكِ يا اقلامُ وانتظري ... للكتبِ وقتاً من الاقدار مكتوبا
أصممتِ كلَّ سميعٍ نعيهُ ولقد ... اسمعتِ امثالك الصُمَّ الانابيبا
بل كنتِ اعلى من الارماح في يده ... كعباً واكثر تسديداً وتصويبا
كأنما القلمُ الأعلى بأُنملهِ ... يخطُّ في اللَّوْح ترغيباً وترهيبا
يحني لهُ الرأسَ إجلالاً وربَّما ... زُهي اختيالاً فجرَّ الذَّيل مسحوبا
تلك الرسائلُ صارت بعدهُ رُسُلاً ... تنعاهُ للدهر مرثيّاً ومندوبا
وطالما قد سرت كالبرق شاكيةً ... قصر المسافةِ تشريقاً وتغريبا

تيت تستصغر الدنيا لها وطناً ... وتبتغي في مناط الشهب تطنيبا
قد كان يرسلها غرّاء سافرةً ... فتخجلُ البدرَ بدرَ الخدرِ محجوبا
من بعد يوسعها نقداً ويملأُها ... بحثاً ويجهدُها كشفاً وتنقيبا
مثل الكواعب لا تبدي ترائبها ... إلاّ وقد ملأَتها العطرَ والطيبا
ألم تكن هيَ احلاها اذا كُسيت ... منهُ وأجملَها دِرْعاً وتَـلبيبا
تلك القصائدُ لم يقصد بها نَشَباً ... يذيلها لا ولا أجراً وتثويبا
بل كان يخلعها فخراً وتكرمةً ... فتتركُ الملكَ الوهّابَ موهوبا
جانبنَ اغراضَ اهل الشعر وانفردت ... بها الصناعة موضوعاً واسلوبا
تلقى بها الفلكَ الدوّارَ منتظماً ... وتلتقى حكمةً تبقى وتشبيبا
حتى غدت لغة العربِ الكرام به ... كريمةً مثلهم اصلاً وتهذيبا
كانت تشارف ان تعيي فصاحتها ... لفظاً ومعنىً وتفصيلاً وتبويبا
فقيّض اللهُ ابرهيمَ يُدركها ... فلم يَدَعْ حاجةً في نفس يعقوبا

* * *

غدت عليكَ ظنوني جِدَّ موحشةٍ ... وكنت تؤنسها بشراً وترحيبا
واصبحت بعدك الآمالُ كاذبةً ... مخيّباتٍ وما عوّدتَ تخييبا
اينَ الرسائلُ تأتي منك حاويةً ... مع البلاغة تأديباً وتأنيبا
واينَ نصحك لا تلقيهِ من ادبٍ ... إلا اضطراراً فيكفيني التجاريبا
خلقٌ صفا مثل منهلِ الندى سحراً ... وقد ترفّعَ موهوباً ومكسوبا

واين خطك يملا العين منظرهُ حسناً وسبكاً وتنسيقاً وترتيبا
كأنهُ الخيلُ تبدي من عوارضها او العذارى يزججنَ الحواجيبا
واين وجهك تجلو الهمَّ طلعتهُ كما جلا البدرُ جنحَ الليل غربيبا
هيهات قد ردَّت الآمالُ راجيهَا صفراً وبُدِّلَ ذاك البشر تقطيبا
وابدع الدهرُ فيما قد عَراكَ فما فارقتَ حتى تبدَّى الحزنُ مصحوبا
وقد تجاوز فيك الرزءُ قدرتهُ جداً فقصَّرتُ مفجوعاً ومنكوبا
وقد تجاوزتَ حدَّ السحبِ مرتبةً فابعثْ لها مزنة تمطرْك شؤبوبا